السنة الثالثة - نقد ومناهج -

سيمياء الثقافة

- سيميوطيقا الثقافة تعني دراسة الأنظمة الثقافية الخاصة والكونية، واستجلاء مظاهر المثاقفة والتهجين والتعددية ورصد أنظمة التواصل عند الشعوب البدائية والمتحضرة، وتهتم سيمياء الثقافة بالبحث عما يوحي به وإليه الأثر الأدبي، من خلال ما يضيفه المحلل السيميائي على الخطاب، ودور السياق الثقافي أو الاجتماعي في تشكيل المعنى، ومن مجالات اشتغال السيميائيات الثقافية مجال تأويل علامات الخطاب بناءً على مرجعياته الثقافية والفكرية، وما اللغة هنا إلا كائن حي، ينبني على أساس تعالقات وتشبيكات تتبادل أو تتناظر أو تتآلف أو تتنافر، وبذلك تنتج الدلالات، وتعتبر اللغة مسرحا سيميائيا تتحرك وتشتغل فيه العلامات، وبما أن اللغة نفسها علامة فإنها تتبادل الحمولات المعرفية مع الثقافة.

- إذا نظرنا إلى الثقافة من زاوية النظر السيميائية، يمكن القول إن الثقافة نفسها سيمياء، ويتبين أنها مجموعة أنظمة من علامات وأيقونات وإشارات رمزية لغوية وبصرية متنوعة ومتعددة متدرجة ومتداخلة، وتنظيم تلك الأنظمة هو العامل المساعد على إيجاد محيط اجتماعي يجعل البشر قادرين فيه على ممارسة مجريات حياتهم.
- تشتغل سيمياء الثقافة على قضايا مختلفة مثل : الإبداع، الآداب، اللغة، الفن، الفلكلور، الترجمة، الأدب المقارن، التواصل، علاقة الأنا بالآخر، أدب الصورة، أدب الرحلة ...

مفهوم الثقافة عند يوري لوتمان

- تتعدد مفاهيم الثقافة تبعا لتعدد أنماطها واختلافها، لكن هناك مميزات مشتركة يمكن نسبتها إلى أي ثقافة ما ومنها :

- أن يكون لكل ثقافة سمات نوعية، فالثقافة نظام لجانب معين من حياة مجتمع ما يتشكل طبق نمط مخصوص، ويتماشى مع هذا النمط، ومقابل الثقافة يبرز الضد (اللاثقافة)، فالضد يبرز الثقافة ويهبها خاصيتها.
- الثقافة في مقابلة اللاثقافة تبدو نظاما من العلامات.

من الواضح أن الثقافة من نتاج الإنسان الذي يقابله الوجود الطبيعي التلقائي، تنعكس فيها قدرة الإنسان على بناء وتكييف قدرة تخدم مجالات حياته مقابل «الخاصة البدائية للطبيعة» التي ولدت دون عناية توجهها يد الإنسان، وفي كل الحالات لابد من وجوه مختلفة للجوهر السميوطيقي للثقافة.

- للثقافة علاقة بعدة مصطلحات أساسية مكملة لها نذكر منها:

1- الثقافة والذاكرة: الذاكرة عند الناقدين أوسبنكي ولوتمان هي الذاكرة غير الموروثة للجماعة، فهي تفعل في المجتمع ما تفعله الذاكرة للفرد، وهي آلية جماعية لتخزين المعلومات، وتعبِّر هذه الذاكرة عن نفسها في نظام من الحدود والأعراف، وهكذا تكون الثقافة ظاهرة اجتماعية.

تلعب الذاكرة دورا بالغ الأهمية في مسألة الاتصال، فإنه يتولد تمييز بين المستقبل المتخيّل وبين المستقبل الفعلي في حالة حصول اندماج في قناة الاتصال بين المرسل والمستقبل في ثقافات تمتلك وسيلة تثبيت الرسالة خارجيا، فالذاكرة عنصر هام لفهم الثقافة وإدراكها.

2- الزمان والنص : هناك حركة دائمة في إهمال أو إغفال أو محْق النصوص، ويقابل ذلك مراحل متداخلة في حيثيات إبداع نصوص جديدة، وعندها تتبدّل الأسماء، وبناء على هذه الديناميكية يوسَم كل نوع من النصوص بتسمية خاصة، فيقال «لا نص»، أو «نص مُغفل»، لكن الثقافة تظل محتفظة به في ذاكرتها، لأن الثقافة – بطبيعتها – لا تقبل الإغفال ولا النسيان، وقد يصعب على المتلقي تصور « اللا نص» في الواقع.

3- تكوّن النصوص وانتقالها: عند انتقال نصوص من ثقافة لأخرى تنتقل أنماط سلوك الشخوص المشاركين في عملية الاتصال، لأنهم من خلال الاتصال يبدعون النصوص ومثل هذا يؤدي إلى التعددية الثقافية، أي وجود إمكانية تبنّي سلوك من ثقافة أخرى، في حين يعيش المرء في حيثيات ثقافته.

4- البنية: من أهم مميزات الثقافة وجود نظام البنية كصفة مميزة لها، وتقف في مركز هذه البنية الأبنية الأوضح، وتقف حول محيط دائرة هذه البنية تكوينات لا يميزها بناء واضح، فعلى الرغم من كونها أبنية في نظام توصيل علامي- توصيلي، لكنها تفتقر للتعضية والانتظام، فالأدب يعد نظاما جزئيا في مجمل الثقافة.

5- علاقة الثقافة باللغة الطبيعية: اللغة جزء من الثقافة، وهي أداة أساسية ومتميزة عن طريقها يمكن ملاحظة ثقافة المجموعة التي تنتمي إليها، وليست اللغة ظاهرة منعزلة أو مستقلة، بل هي جزء من نظام ثقافي مركب، فالثقافة تعمل على تنظيم العالم حول البشر بنائيا، فهي تنتج محيطا اجتماعيا يجعل الحياة ممكنة من حيث كونها حياة اجتماعية.

أدوات وآليات سيمياء الثقافة

- تتزاحم مجموعة من المصطلحات المتداخلة في سيمياء الثقافة، وكلها تصب في مساحة ثقافية واسعة، ومن الممكن النظر إليها على أنها أدوات يمكن استخدامها في عملية الحوار مع النص الثقافي وفهمه، ويمكن أن تعالج سيمياء الثقافة أمورا أخرى أساسها الثنائيات، ومنها: القديم-الجديد، الثابت-المتحول، الوحدة-التعددية، أما على سبيل الميتا لغة فتعالج: الأعلى-الأسفل، اليمين-اليسار، الضوء-الظلام، الأبيض-الأسود، وفي النظام السيميائي تعالج الثابت- الدينامي.

1- داخلي-خارجي : لا يمكن أن ينعزل مظهر من مظاهر الثقافة، ليقف مستقلا بذاته، بل يتشكل على أنه جزء من كل، ويستمر موجودا غير مفارق لحركة دائبة بين الخارجي والداخلي، ويتحتم السؤال حول مدى حصول الفوضى والنظام في خضم هذه الديناميكية.

تحدث في كل محيط سيميائي في ثقافة ما عمليات تنقّل أو دوران مستمرة غير متوقعة بين الداخل والخارج، وفي خضم ذلك فإن مجال الفوضى يخترق مجال الثقافة والعكس، فالثقافي يحتاج إلى اللا ثقافي لأن كلا منهما يحدد الآخر بسبب الحركة الدائبة بين الداخلي والخارجي وتحول الفوضى إلى نظام، وهذا ما حصل فعلا في منظومة الصعاليك.

2-الفوضى-اللا فوضى: تتحدد اللاثقافة بالثقافة الضد بسبب الفوضى (تنظيم-لا تنظيم) التي يمكن أن تلحق الثقافة المتجهة نحو المضمون، وفيها يتسع المجال أمام اللا ثقافة، أما الثقافة المتجهة نحو التعبير (صحيح- لا صحيح) فلا تقوم حولها محاولة الاتساع ولا تستقبل الضد.

3-منظّم – لا منظم : نجد مجموعة من الأنظمة عالية التنظيم، ويتخللها درجات مختلفة من اللا تنظيم، ويؤكد لوتمان أهمية «عدم الاكتمال» في الثقافة كنظام سيميائي موحد وكشرط ضروري لتتمكن الثقافة من القيام بوظيفتها، فالثقافة حقيقة نسبية، لا مطلقة، لذا يتوجب منح أسس معينة لتنظيم ما هو غير منظّم، من خلال كشف النظام الخفي في الأشياء، وحتى يتحقق ذلك في الثقافة وفي آلياتها الشفرية المركزية، يجب أن تمتلك خواصا معينة منها:

- طاقة عالية على النمذجة، أي القدرة على وصف أكبرمدى من الأشياء، أو أن تكون لها القدرة على نفي وجود الأشياء التي لا يمكن استخدام النموذج لوصفها
- ـ توظيف الطبيعة المنظمة للثقافة كأداة لتحويل غير المنظم إلى منظم.

4-الاستبعاد والامتصاص: لا يوجد نص صافٍ بذاته، فكل نص يأخذ من غيره، كلمة أو جملة أو عبارة، أو فكرة، فإن الثقافة باعتبارها نصا واحدا يتألف من مجموعة من نصوص، أيضا تنهل من خارجها، وقد يحدث ذلك بعشوائية تامة، لذا يجب النظر إلى الثقافة على أن فيها نصا غائبا قد تغذى من نصوص ومصادر خارجية أخرى.

تسعى الثقافة إلى امتصاص وانتزاع واغتصاب عناصر من خارج الثقافة لنفسها، وهي على الأغلب من العلامات اللا ثقافية، لكنها تتوافق وتتلاءم مع روحها، فينشأ وضع جديد يتميز باللا تنظيم

المركز والهامش في شعر الصعاليك

- يقول الشنفرى:

وعيابة للجـــود لم تدر أنني ... بإنهاب مال الباخلين موكل

غدوت على ما أحتازه فحويته ... وغادرتـــه ذا حيرةٍ يتململ

يقول عروة بن الورد:

ما بِيَ مِن عـــارٍ إِخالُ عَلِمتُهُ سِوى أَنَّ أَخوالي إِذا نُسِبوا نَهدُ

إِذا ما أَرَدتَ المَجدَ قَصَّرَ مَجدُهُم فَأَعــيا عَلَيَّ أَن يُقارِبَني المَجدُ

فَيالَيتَهُم لَم يَضرِبوا فِيَّ ضَـربَةً وَأَنِّيَ عَبدٌ فيهِمُ وَأَبـــــي عَبدُ

أقِلّي عَلَيَّ اللّوْمَ يا ابْنَةَ مُنْـــــــــذِر	ونامِي، فإنْ لم تَشْتَه النَّومَ فاسْهـــــرِي
ذَرِيني ونَفسي أُمَّ حَسَّـــــــــانَ، إنني	بها قبـــــــل أنْ لا أملك البيعَ مشتري
أحاديثَ تَبْقَى والفَتى غيـــــــرُ خالدِ	إذا هوَ أمسَـــــــى هامةً فـــــــوقَ صُيَّرِ
تُجَاوِبُ أحْجَـــــــارَ الكِنَاسِ وتَشْتَكِي	إلى كلِّ معـــــــــــــــــــروفٍ تراهُ ومُنْكَرِ
ذَرِيني أُطَوّفْ فِي البلادِ لعـــــــــلَّنِي	أخَلِّيكِ أو أغْنِيكِ عن سُوءِ مَحْضَري
فإنْ فازَ ســــــــــــــهمٌ للمنيةِ لم أكنْ	جَزُوعاً، وهَلْ عن ذاك مِـــــــن مُتَأخَّرِ

ومستهنئ زيدٌ أبـــــــــوهُ فلا أرى	له مَدفعاً فاقني حياءكِ واصبري
لَحَى الله صَعْـــلُوكاً إذَا جَنَّ ليلُهُ	مصافي المشـاشِ آلفاً كل مجزر
يَعُدُّ الغِنى مِن نَفسِهِ كُلَّ لَيـــــلَةٍ	أَصابَ قِراها مِن صَـــــديقٍ مُيَسَّرِ
يَنامُ عِشـــــــاءً ثُمَّ يُصبِحُ ناعِســاً	يَحُتُّ الحَصى عَن جَنبِهِ المُتَعَفِّرِ
قَليلُ اِلتِمـــــاسِ الزادِ إلّا لِنَفسِه	إذا هُوَ أَمسى كَالعَريـــشِ المُجَوَّرِ
يُعَينُ نساءَ الحَيِّ مـــــــا يَسْتَعِنَّهُ	ويمسي طليحاً كالبعير المسـحر
ولكن صُعلوكاً صفيـــــحةُ وجهه	كَضَوْءِ شِهَابِ القـــابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطلاً على أعـــــــــدائه	بساحتهم زجرَ المنيـــح

يطاعنُ عنها أوّلَ القـــــــــــــومِ بالقنا	وبيضٍ خفافٍ ذاتِ لـــــــــونٍ مشهّر
فَيَوماً عَلى نَجـــــدٍ وَغاراتِ أَهلِـــــها	وَيَـــــوماً بِأَرضٍ ذاتِ شَتّ وَعَـــــرعَرِ
يناقلن بالشُّمطِ الكرام أولي القوى	نِقَابَ الحِجَازِ في السَّرِيح المُسَيَّرِ
يُرِيحُ عليَّ اللَّيلُ أضيافَ مَـــــــــجدٍ	كريم، ومالِي سَـــــــــارحاً مالٌ مفتِرِ

ضبوا: مشي الجيش على الأرض منسر: سير الجيش على الخيول

الصرماء: الناقة الصرماء التي تعدّ للتسمين.- المذكر: الناقة التي تلد الذكور

مصافي المشاش: المؤثر للأكل والمشاش هو رأس العظم